

# الشيخ الأنصاري

## دراسة في قيمته العلمية وظروفه الاجتماعية

حسين الشامي

! الأبحاث و المقالات المنشورة لا تعبر عن رأي «الاتفاق» بالضرورة ، بل تعبر عن رأي أصحابها

المسألة المعقدة هي التي جعلت الشيخ الأنصاري يكرس حياته العلمية لتطوير هذا لعلم ويكون رائده الكبير في المرحلة المعاصرة وعلى هذا الاساس يعتبر الشيخ الأنصاري رائداً لارقى مرحلة من مراحل العصر الثالث وهي المرحلة التي يتمثل فيها الفكر العلمي منذ أكثر من مائة سنة حتى اليوم.

ثالثاً: تصاعد الحركة الشيعية

عاصر الشيخ الأنصاري واحدة من الفترات المضطربة في تاريخ الفكر والثقافة حيث ظهرت الاتجاهات الفكرية المنحرفة واستطاعت ان تتغلغل داخل اوساط الأمة الإسلامية. وكان منطلق بعض هذه الاتجاهات من الاوساط العلمية الشيعية وهي مسألة حساسة وخطيرة باعتبار ان الحوزة العلمية تمثل منطقة العصب الحي للفكر الشيعي. وان اي أرباك طارئ فيها يؤثر على عطاءاتها ورسالتها الفكرية الاصيلة التي تميزت بها لقرون طويلة.

لقد عاصر الشيخ الأنصاري قوة الحركة الشيعية وهي الحركة التي وضع اسسها الشيخ احمد الاحسائي في كربلاء بعد ان درس على السيد مهدي بحر العلوم والشيخ جعفر كاشف الغطاء ونال منهما اجازة في الرواية وقيل درجة الاجتهاد، وتميز عن أقرانه بقدراته العلمية، لكنه أذ يتحدث لطلابه بأرائه الخاصة، مما اثار حوله ضجة في الاوساط العلمية. اضطر على أثرها إلى ترك العراق والهجرة إلى الحجاز.

وكان يعتمد الشيخ الاحسائي في اصدار دعاواه واحكامه على ما يدعيه من رؤية الأئمة عليه السلام حتى ذلك سميت طريقته (بالكشفية) وهي طريقة لا تنسجم مع المناهج المتبعة في الاوساط العلمية للحوزات الشيعية.

بعد وفاة الشيخ الاحسائي خلفه السيد كاظم الرشتي بوصية منه، وكان لهذا المنهج والوصية التي تركها الرشتي الاثر الكبير في ظهور الحركة البابية التي اعلنها احد تلامذة الرشتي في ايران وهو (علي محمد) الذي إدعى بانه الباب إلى الامام الغائب.

استطاعت هذه الحركة ان تنجح في ايران وان تصل إلى ذروة نجاحها خلال فترة مرجعية الشيخ الأنصاري. ورغم ان المصادر المتوفرة لدينا لم تتحدث بوضوح عن موقف الشيخ الأنصاري في مواجهة هذه الحركة الضالة، الا أنه يمكن اكتشاف دوره من خلال معرفة حقيقة تاريخية هامة. وهي ان الحركة البابية التي استندت جذورها إلى الوسط العلمي في كربلاء وكان يفترض في ضوء ذلك ان تنتشر في العراق ولا سيما في المناطق المقدسة منه، إلا ان...

الحديث بوضوح عن مسارها العلمي بمرحلة ما قبل ومرحلة ما بعد الشيخ الأنصاري

■ فترة الشيخ الأنصاري

عاش الشيخ الأنصاري بين عامي 1214 هـ - 1281 هـ اي منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادي وحتى العقد السادس منه وكانت تلك الفترة واحدة من الفترات الحساسة في التاريخ الشيعي والاسلامي المعاصر، حيث شهدت أحداثاً ضخمة وخطيرة على المستويات العقائدية والثقافية والسياسية ملأت ارجاء الدولة العثمانية واثرت بعضها بقوة على الساحة العراقية عموماً وعلى النجف الاشرف بالخصوص. وكان من الطبيعي ان تنعكس تلك الاجواء على شخصية الشيخ الأنصاري واتجاهاته العلمية التي تميز بها عن معاصريه، فالشخصية لا يمكن ان تنفصل عن محيطها الاجتماعي والثقافي، ولابد ان تتأثر بالاحداث التي ترسم معالمها وتحدد مساراتها العامة، انما تفاوتت نسبة التأثير من شخص لآخر كما تختلف نتائج التأثير سلباً أو ايجاباً. والذي حدث مع شيخنا الأنصاري أنه تأثر بهايلاجياً، واستطاع ان يجعل حصيلة عمره منطقة اشعاع وهّاج وسط الساحة الإسلامية، وعلامة شاخصة في التاريخ العلمي للشيعه، ومصدر عطاء مستقبلي للامة ولاجيالها في مختلف الحوزات العلمية.

ومن اجل ان نكتشف ابعاد هذ الشخصية العملاقة نرى من الضروري تثبيت بعض الملامح الرئيسية التي عاصرها منذ نشأته وحتى تسلمه المرجعية، وذلك حسب المعالم الاساسية التالية:

اولاً: الاجواء العلمية في النجف الاشرف

خلال فترة دراسة الشيخ الأنصاري، كانت الحوزة العلمية في النجف الاشرف تشهد مرحلة ازدهار والتقدم. حيث بلغ عدد طلابها حوالي عشرة آلاف طالب، وهو رقم كبير قياساً بالظروف المعيشية الصعبة آنذاك، وقد كان اساتذة الحوزة في تلك الفترة يتمتعون بقدرات علمية عالية، بحيث ان بروز احدهم وتميزه على غيره لا يكون الا من خلال امتلاكه قدرات علمية نادرة، على هذا فان تفرد الشيخ الأنصاري وتقدمه على معاصريه يشير بوضوح إلى سمو منزلته العلمية حيث ان اساتذة الشيخ محمد حسن (صاحب الجواهر) اوصى بالمرجعية إليه، وهي بادرة لم تكن مألوفة في الحياة الشيعية، ولا شك ان هذا التعيين انما كان عن استيعاب الشيخ صاحب الجواهر لشخصية تلميذه الأنصاري.

ثانياً: جذور النزاع الاصولي الاخباري

نشأ الشيخ الأنصاري في الفترة التي شهدت انحسار الاتجاه الاخباري بعد نزاع فكري طويل بين علماء الشيعه، وقد تحقق الانتصار على يد الرائد المجدد الوحيد محمد باقر البهبهاني المتوفى عام 1206 والشيخ الكبير جعفر كاشف الغطاء غير ان هذا الانتصار الفكري وبسبب العوامل السياسية والاجتماعية المتشابكة التي احاطت به لم يستكمل مشروعه النظري ولم يكن يستند على رصيد علمي كبير من القواعد والمباني المدونة في علم الاصول، ولعل هذه

هذين العلمين والمتمثلة بكتابيه الخالدين (الرسائل والمكاسب).

ثالثاً: الاستقلالية السياسية

من الخصائص التي تتميز بها الحوزة العلمية الشيعية انها مؤسسة غير منتمية لاي جهة رسمية، وهذا ما جعلها على الدوام تعيش حرية البحث الفكري والاختيار المنهجي. وقد تعرضت لضغوط هائلة من قبل الحكومات الجائرة في فترات مختلفة من التاريخ، الا انها استطاعت ان تواجه التحديات بصلابة وتحافظ على وجودها العلمي واستقلالها السياسي.

ان من اهم نتائج الاستقلالية في الحوزة العلمية ان اساتذتها لا يصلون إلى مواقعهم الاولى في

تشريعهم واحكامه وثقافته واخلقه. وعلى هذا فان الشخصية العلمية البارزة في الوسط الشيعي تتحرك في خط موصول الحلقات وهي خلاصة سلسلة طويلة من جهود الاعلام الفقهاء، وتناج تاريخ ومحصلة زمن، وهي في نفس الوقت عطاء للحاضر ورفد للمستقبل.

وعندما نضع شخصية الشيخ الأنصاري وغيره من اعلام الشيعة في هذا المسار الطويل ووفق الحقائق والسمات التي تميزه، نكتشف بسهولة موقعه ودوره في التاريخ العلمي الشيعي. فهو نقطة التواصل بين التراث الشيعي الضخم الذي وصل إليه وبين المستقبل الفقهي والاصولي الذي انطلق من مدرسته



المتطورة الخلّاقة.

ثانياً: الإبداع والنقد العلمي في المدرسة الشيعية

تتميز الحوزات العلمية الشيعية بنشاط علمي حر، فهي لا تقف عند حدود النظرية والفكرة التي تصلها من الماضي وتأخذ بها على انها مسألة غير قابلة للنقاش، انما تخضع لنتائج الدراسات والراء الاجتهادية التي توصل اليها العلماء السابقون إلى بحث متجدد ونقد مستمر من قبل اجيال العلماء اللاحقين. مما يجعل من اي جهد علمي موضع دراسة دائمة في الحوزات العلمية. وبذلك تظل الشخصية الشيعية في الغالب حية مع الزمن من خلال ما تقدمه من افكار ونتائج وهذا ما يساهم بطبيعة الحال في تطوير النظرية والوصول بها إلى التكامل. كما أنه يساهم في بقاء روح الإبداع حية داخل الحوزة، إذا ما قدر لشخصية علمية ان توظف التراث الواصل اليها وتنطلق منه في ابداعات جديدة، وهذا ما فعله الشيخ الأنصاري قدس سره. فلقد استوعب إليه ثم اضاف ابداعاته الهائلة في

كاشف الغطاء حيث استطاع ان يثبت مرتكزات المدرسة الاصولية في الساحة الشيعية بشكل حاسم، وهو بذلك اكمل منهج المدرسة الجديدة التي اسسها استاذة الوحيد البهبهاني (المتوفى عام 1205هـ) في الفقه والاصول والحديث.

وبذلك نلاحظ ان الشخصيات العلمية الشيعية والتي تركت آثارها الكبيرة على الساحة الفكرية الإسلامية لم تكن منفصلة عن بعضها انما هي تتواصل فيما بينها بترباط علمي وثيق، مما جعل العطاءات تتكامل مع بعضها البعض لتثري مدرسة اهل البيت عليه السلام في العلوم الإسلامية ولا سيما في حقلي الفقه والاصول حيث سجل فيهما علماء الشيعة تقدماً ملحوظاً مع تقدم الزمن.

ان هذه الظاهرة التي نتحدث عنها ونصطلح عليها بـ(ظاهرة التكامل العلمي للشخصية الشيعية) استطاعت ان تعطي نتائج علمية ضخمة، ساهمت في ازدهار المدرسة الشيعية فهي لم تكن نتائج شخصية محدودة في الاطار الذاتي، بل كانت اوسع من هذه الحدود الضيقة. فالنشاط العلمي للشخصية يخرج عن دائرة الذات الصغيرة إلى أفق المدرسة الاكبر. وهذه احدي نقاط القوة في المدرسة الشيعية المتميزة بالتطور العلمي المستمر.

■ وإذا اردنا ان نطرح الاسباب التي تقف وراء ظاهرة التكامل والابداع فاننا نلاحظ المرتكزات التالية:

اولاً: المنهج الرائد لمدرسة اهل البيت عليه السلام

ان الحوزات العلمية الشيعية بمختلف مواقعها وظروفها هي امتداد عقائدي وفكري للمنهج الذي وضع اسسه وحدّد خطوطه أئمة اهل البيت عليه السلام، حيث كثفوا جهودهم في انشاء مدرسة علمية اصيلة تحفظ المسار الاسلامي من الانحراف، وتقدم للامة اصالة الإسلام الذي حمل رسالته جدهم الرسول الاكرم عليه السلام. وقد بذل الأئمة الاطهار جهودهم لمواجهة الانحرافات العقائدية، ووضعوا القواعد الاساسية لفهم الشريعة والتعامل مع نصوصها ومبادئها وتعاليمها، وقد كانت مهمتهم ذات منهج شمولي، حيث اعدوا اجيالاً من العلماء انتشروا في ارجاء العالم الاسلامي ليركزوا الاصالة الإسلامية في حياة الأمة وبيعثوا النهضة العلمية في اوساطها.

وقد ظهرت نتائج هذا التخطيط البعيد المدى، بعد غيبة الامام المهدي عليه السلام، حيث لم يواجه الشيعة ازمة في استنباط الاحكام الشرعية أو في طرح الفكر الاسلامي والعقيدة الحق، حيث كانت الاسس العقائدية والمعاليم الفقهية واضحة عند علمائهم الذين نهضوا بادوارهم العلمية في تثبيت تلك المعاليم والاصول وتوظيفها بالصورة الصحيحة في المجال العلمي، فكانت جهود اعلام التشيع ورموزه الفكريين تتضافر مع بعضها البعض ويكمل اللاحق ما بدأه السابق، لان المسار العلمي كان ينحدر من اصول واحدة ويمضي في طريق موحد نحو هدف واضح مشخص ولعل هذه الحقيقة الكبيرة هي التي جعلت المدرسة الفكرية والفقهية الشيعية تنفرد عن غيرها من المذاهب الإسلامية وللمسار العلمي المدرسة الحقيقية للاسلام في

تميز التاريخ الشيعي الطويل بظاهرة جديدة بالدراسة والاهتمام، تلك هي بقاء الشخصية العلمية حية وعدم انتهاء دورها في حدودها الزمنية التي عاشتها.

قد يفهم من هذا الطرح أنه مسألة طبيعية في المسار العام للتاريخ، بأعتبار ان تاريخ الشعب والدولة والمذهب، انما يتكون من حركة الافراد وتأثيرهم على الاحداث التي عاشوها في جوانبها العقائدية والثقافية والسياسية وغيرها.

ومن الطبيعي ان يبرز الاشخاص ذوو الجدارة والقدرات الاستثنائية على سواهم فيخلدهم التاريخ ويصبحون أبطال الزمن الطويل، وهذه حقيقة يشترك فيها التاريخ الشيعي مع غيره.

ان هذا الكلام لا نملك الا ان نسلم به ونؤكد، لكن الذي قصدهنا مسألة أخرى غير هذه، إننا نقصد التواصل بين شخصيات التاريخ الشيعي، حيث تستمد الشخصية قوتها وعطاءاتها من شخصية سابقة فتساهم في تثبيت دور كبير في حركة الأمة فلا تكون معزولة في حدودها الزمنية أو مقطوعة عن مرحلة سابقة، انما الشخصية التاريخية هي امتداد لتراث شيعي واسع وكبير، وهي في نفس الوقت منطلق لنشاط جديد.

ومن اجل ان تتضح الصورة التي نحن بصدها من المناسب ان نوضح العلاقات المتواصلة بين بعض اعلام الشيعة في فتراتهم التاريخية المختلفة.

فالشيخ الصدوق (المتوفى عام 381هـ) صاحب التصنيف التي زادت على الثلثمائة والذي أعتبر رئيس المحدثين في زمانه وساهم في حفظ تراث اهل البيت عليه السلام، الشيخ الصدوق هو نتاج شخصية كبيرة سبقت، واستمرار لها، فهو اكمل مدرسة والده الشيخ ابن بابويه (المتوفى عام 329هـ) الذي كان استاذ مدرسة قم المقدسة في الحديث وشيخ الطائفة فيها وعاصر الشيخ الكليني (المتوفى 328هـ) صاحب الموسوعة الحديثية الضخمة (الكافي اصولاً وفروعاً).

وبعد الشيخ الصدوق جاء السيد ابن طائوس (المتوفى عام 664هـ) الذي اكمل هذا الخط الفكري الاصيل في رواية الحديث.

وفي الجال العقلي نلاحظ ان الشريف المرتضى (المتوفى عام 436هـ) الذي دفع البحث الحر والدراسات العقائدية والكلامية إلى درجات عالية من التأصيل والتطور، هو امتداد للمسار الذي إنتهجه استاذة الشيخ المفيد (المتوفى عام 431هـ).

واعقب السيد المرتضى في تطوير المنهج الحر والمباحث العقلية الشيخ ابو جعفر الطوسي (المتوفى عام 460هـ) مؤسس جامعة النجف الاشرف العريقة.

ثم برز العلامة ابن المطهر الحلي (المتوفى عام 726هـ) الذي نهض بالبحث الحر والابحاث العقلية والكلامية والفقهية إلى مراتب متقدمة.

كما ان الشهيد الاول (المتوفى عام 786هـ) يعتبر نشاطه الفقهي العملاق امتداداً لنشاط فقهي سابق قام به المحقق الحلي (المتوفى عام 676هـ).

وفي مجال النزاع الاخباري الاصولي يبرز الاسم اللامع للشيخ جعفر